الفصل الثانى

فى القيم

- الإسلام امتداد لمسيرة الخير
- الإسلام طهارة لما مضى
- عزة النفس أولا
- الإنسان بين الكبر والجمال
- التسابق إلى الخير
- هجرة المسلم الدائمة
- عمل الخير يعدل الهجرة
- الحياة ساعة وساعة
- استيقاظ الضمير
- الندم توبة
- الاقتصاد فى الطعام والشراب
- الحياة ضراء وسراء
- أمانة المسئولية
- لا طاعة فى المعصية
- لا استثناء فى تطبيق الحدود
- كتمان أسرار المجتمع
- من أدب المجلس
- آداب الطعام
- إيثار الضيف
- النهى عن الغيبة
- النهى عن التعصب
- اليمين الفاجرة
- اليمين لا تمنع من خير
- قدسية حقوق الجار
- مداراة الناس
- موقف نبيل
- حق الطريق
- من أبواب الخير
- الحرص على مجالس العلم
- التنزه عن سوء الظن
- القسم
- حسن الخاتمة
- العبرة بالخواتيم

الإسلام امتداد لمسيرة الخير

الإسلام دين الله الخاتم، جاء به محمد ﷺ يحثنا على الخير، ويأمرنا بالمعروف ويأخذ بأيدينا إلى الرشد ويدفعنا إلى الفضيلة، في إطار عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين..

وحين يقبل الناس على الإسلام فإنهم يعودون إلى الفطرة السوية التي خلقهم الله عليها فشوهوها بأفعالهم القبيحة وعقائدهم الباطلة.. قال الله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(الروم/٣٠)

وهناك أناس لديهم فعل الخيرات، ولهم نشاط طيب في نصرة المظلوم ورعاية المحتاجين، فإذا أسلم هؤلاء وصححوا عقيدتهم، ورضوا بالله ربا، وبمحمد نبيا وبالقرآن حكما، واستمروا على ما كانوا عليه من طيبات السلوك والأعمال — ضاعف الله لهم الثواب ومنحهم الأجر الجزيل، وحصلوا على ثواب ما قدموه قبل الإسلام.. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.. وأساس قبول العمل الصالح هو الإيمان، وبغير الإيمان تضيع الأعمال سدى، فإذا أسلم الإنسان وآمن صحت الأعمال كلها قديمها وحديثها وحظي برضوان الله الأكبر..

وقد تساءل الصحابة مع رسول الله ﷺ عن أعمال للخير كانوا يفعلونها في الجاهلية، ما مصيرها عند الله عز وجل بعد أن أسلموا لله رب العالمين؟ ومن هؤلاء الصحابة الذين تساءلوا — حكيم بن حزام، وكان رجلا عظيما قبل الإسلام، ولد في الكعبة وعاش ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام، وأسلم عام

فتح مكة، ومات بالمدينة المنورة، وأعتق فى الجاهلية مائة رقبة، وحمل على مائة بعير، أى تصدق بها جميعا.. لقد سأل حكيم بن حزام وقال:

يا رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها فى الجاهلية، هل لى فيها من شىء؟ والتحنث التعبد والمراد بقوله «من شىء» أى من أجر.. وقد جاء توضيح هذا المعنى فى رواية أخرى حين قال:

يا رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟

إن حكيم بن حزام أسلم وواصل مسيرة عطائه الإنسانى، وحرص على ثواب الله وفضله فى الدار الآخرة حتى يحظى بالفردوس الأعلى والنعيم المقيم.

إنه سأل عن أفعال الخير التى عملها قبل الإسلام.

وعندئذ قال النبى ﷺ: **أسلمت على ما أسلفت من خير.**

الإسلام طهارة لما مضى

عاش الناس قبل الإسلام فى جهالة وضلالة، يعبدون الأصنام، ويأكل قويهم ضعيفهم، ويسيئون الجوار، ويقطعون الرحم..

فلما جاء الإسلام قاد البشرية إلى توحيد الله عز وجل، ومكارم الأخلاق وطيبات السلوك، قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(آل عمران / ١٦٤)

والإسلام يقبل التائبين، ويعيد إليهم طمأنينتهم، ويرفع عنهم الأغلال، ويمنحهم سعادة النفس وانشراح الصدر وهدوء الضمير.. قال الله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(الزمر / ٥٣ - ٥٤)

والإسلام يريد رجالا مخلصين، يقبلون عليه باقتناع عقلى، ورضا نفسى، ويقين كامل بأنه الحق وما سواه باطل، وبأنه النور وما سواه ظلام، وبأنه الهدى وما سواه ضلال، وبأنه الحياة وبدونه يتحقق الموت..

وعلى عهد رسول الله ﷺ دخل الناس فى دين الله أفواجا، ونعموا بالإسلام دينا، ولكن كانت تؤرقهم أفعالهم القديمة التى أفسدوا بها وظلموا أنفسهم وأهليهم.. وتساءل الناس عن موقفهم من سيئاتهم السابقة وتوجسوا من عقاب الله تعالى..

فقال ناس: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية..

وجاء ناس من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، وقالوا: يا رسول الله إن الذى تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة..

وعندما جاء عمرو بن العاص ليعلن إسلامه وقال: يا رسول الله ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط الرسول يمينه، فقبض عمرو يده، فتعجب النبى ﷺ وقال: مالك يا عمرو؟ فأجاب عمرو قائلا: أردت أن أشترط، قال النبى ﷺ: تشترط بماذا؟

قال عمرو: أن يُغفر لى..

أمام هذه النوايا الصادقة والعزيمة الصحيحة والتوبة النصوح فإن الله تعالى يغفر لهم ما قد سلف، بل ويبدل سيئاتهم حسنات..

وعندئذ قال النبى ﷺ:

أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله..

وفى رواية: **من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر.**

عزة النفس أولاً

قد يجد الإنسان نفسه مضطرا لأن يسأل شيئا من صديق أو زميل أو رئيس، وهذا الاضطرار لا ينبغى أن يضيع معه ماء الوجه ويذهب معه الحياء، فلا قيمة للحياة مع الذل، ولا سعادة فى الدنيا مع ضياع الكرامة..

ويوجد بعض الناس يتخذون من التسول حرفة ويجيدون التصنع أمام الرؤساء، وفى الطرقات، ويمدون أيديهم لحاجة وغير حاجة، وهذا منتهى السفه والضياع والصغار..

وقد علم الرسول ﷺ أصحابه أن يكونوا أعزة لا يسألون الناس شيئا، فالمسلم الحق يحرص على العفاف ويباشر الأسباب ويدع العواقب لله أحكم الحاكمين.

وحين كان الناس يسألون الرسول ﷺ عطاء فلا يردهم وكان يمنحهم منحا كثيرة، ويعطى عطاء من لا يخش الفقر..

ويحدثنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فيقول: إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده..

فالرسول باعتباره الحاكم وولى أمر المسلمين تلتقى عنده الصدقات والأموال العامة للدولة فينفقها فى أبوابها، ويعطى المسلمين حقهم فى مال الدولة، فالناس أمانة فى أعناق حكامهم..

وهؤلاء النفر من الأنصار سألوا الرسول أموالاً فأعطاهم، فلم يقنعوا وسألوا المزيد فأعطاهم حتى نفد المال الذى تجمع فى هذه اللحظة أمام الرسول لتوزيعه..

ولما وجدهم مازالوا حريصين ولديهم إلحاح فى السؤال نصحهم الرسول ﷺ نصيحة جامعة، فالرسول لن يدخر شيئا من المال لنفسه، ولن يمنع المال من أن يصل إلى مستحقه، فهو ﷺ حريص على المؤمنين، ويشق عليه حالهم، ويرفق بهم أكثر من رفق الوالدين بأبنائهما..

وشأن المسلم أن يبقى على عزة نفسه، وأن يغالب هـواه، وأن يقنـع بمـا يسـره الله له حتى يعيش منشرح الصدر سعيدا..

لقد ألح بعض الأنصار فى السؤال، وعندئذ قال النبى ﷺ:

ما يكن عندى من خـير فلـن أدخـره عنكـم، ومـن يسـتعفف يعفـه الله، ومـن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله، وما أعطى أحد من عطـاء خـيرا وأوسـع من الصبر..

الإنسان بين الكبر والجمال

الإنسان مخلوق كرمه الله تعالى بدينه وعقله وإن كان ضعيف الجسم قليل التحمل، فليس الإنسان يطاول الجبال الشوامخ أو السموات العلا، وليس يقوى الإنسان أمام الحيوان المفترس..

لكن الإنسان تكمن قوته فى عقله، وتكمن كرامته فى دينه، ويعز جنابه بأخلاقه، قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء/٣٧)

وبنو الإنسان جميعا متساوون فى أصل الخلقة، وجعل الله اختلاف ألوانهم وأجناسهم آية من آيات القدرة الإلهية المبدعة، قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات/ ١٣)

وقد كانت توجيهات رسول الله ﷺ فى هذا الجانب قوية بناءة، تعد أحيانا بالثواب الجزيل للمتواضعين الذين يألفون ويؤلفون، ويتميزون بالأخلاق الحسنة، وتتوعد أحيانا أخرى بالعذاب الشديد للمتكبرين الذين ينفر الناس منهم لغلظ قلوبهم وقسوة فعالهم.. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» وهذا الوعيد الشديد لأن الكبر يتولد من الشعور بالاستعلاء على الناس وازدرائهم، وهذا الشعور — بلا ريب — شعور خادع بعيد

عن الواقع، ينبئ أن صاحبه غير طبيعى فى سلوكه وتفكيره، وغير سوى فى تصرفاته، مما قد يدفعه إلى ظلم الآخرين والاعتداء على حرماتهم وغصب ما فى أيديهم وانتهاك أعراضهم..

ولهذا كان الوعيد شديدا بحرمانه من الجنة التى هى الأمل الأكبر والفوز الحقيقى الذى يحرص عليه كل مسلم صادق الإيمان..

لكن أحد الصحابة قام متسائلا، وأثار سؤالا وجيها، قال: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟!، لقد توهم السائل أن الكبر قد يشمل الإنسان الذى يحرص على نظافة ثيابه وجمال هندامه، وخشى الرجل أن يدخل مثل هذا الشخص الجميل فى عداد المتكبرين.

وإذا برسول الله ﷺ يعلمه أدبا عاليا، وخلقا ساميا فإن الجمال مطلوب شرعا، والعبادة فى الإسلام تسبقها الطهارة من الاستنجاء والوضوء أو الغسل، ويستحب لها الطيب والسواك، وهذا الجمال شىء آخر غير الكبر، فإن الكبر هو الإعراض عن الحق والتجافى عن القيم واحتقار الناس..

عندئذ قال النبى ﷺ:

إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.

التسابق إلى الخير

المسلمون تلتقى قلوبهم على الخير، وتتساند قواهم على البر، ويتسابقون إلى المعروف، ويحرصون على أن يعيشوا عباد الله إخوانا..

وقد كان المسلمون السابقون فى صدر الإسلام يدا واحدة، وقلبا واحدا، يتقاسمون أموالهم بطيب نفس وإيثار وحب.. ولم تحملهم على ذلك عقوبة مادية ولا حراسة بشرية، وإنما دفعهم لذلك إيمانهم وتقواهم، لقد كانوا أشد حبا لله ورسوله..

ومن مواقف الخير والبر والمعروف على عهد رسول الله ﷺ أن قوما حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء (مهلهلة)، عامتهم أو كلهم من قبيلة مضر.. جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فلما رآهم تمعر وجهه الشريف (تغير) لما رأى بهم من الفاقة، فدخل وخرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام للصلاة، ثم خطب فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة النساء – الآية ١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحشر – الآية ١٨)

وقد قرأ الرسول ﷺ هاتين الآيتين لأنهما أبلغ فى الحث على الصدقة لما فى الآية الأولى من تأكيد الحق لكونهم إخوة، ولما ترشد إليه الآية الثانية من ضرورة

اليقظة والاستعداد للقاء الله عز وجل، تلك اليقظة التى تجعل المسلم يتجافى عن الدنيا ولا يغتر بزخرفها..

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره.. حتى قال: ولو بشق تمرة..

فالرسول الكريم هنا يدفعهم إلى أن يجود كل إنسان بما عنده، قلّ أو كثر، فالمدار على حسن النية والمشاركة الطيبة..

وقد استجاب المسلمون استجابة فورية، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، وكان هذا الرجل فاتحة الذين أقدموا على التبرعات، وتتابعَ الناس بعد ذلك يشاركون فى المساعدات حتى اجتمع لدى رسول الله ﷺ كَومان من طعام وثياب..

فتهلل وجه الرسول الكريم واستنار فرحا وسرورا، لما رأى من سرعة الاستجابة والشفقة بين المسلمين وتعاونهم وبذل الأموال فى سبيل الله..

ولا ننسى أن البادئ هو الأفضل وأن من فتح باب التبرعات أكثر ثوابا ممن أتى بعده..

عندئذ قال النبى ﷺ:

من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء..

هجرة المسلم الدائمة

بعث الله محمدا ﷺ على حين فترة من الرسل وانقطاع من الوحى، وجهالة وضلال مبين، فدعا إلى التوحيد والفضيلة والقيم.. ومكث فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ينوع أساليب الدعوة، ويتحمل البأساء والشدة، ويعانى المسلمون من الإيذاء والبطش، إلى أن أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة، فبدأ عهد جديد للدعوة الإسلامية، ووقعت بين المشركينْ والمسلمين عدة معارك حربية، انتهت بهزيمة الشرك والشر وانتصار التوحيد والإسلام..

وفى العام الثامن للهجرة تم فتح مكة، وعاد المهاجرون إلى موطنهم الأول وأصبحت مكة والكعبة فى حمى المسلمين، ولم تعد مكة دار شرك، وتحولت إلى دار للإسلام والمسلمين..

ومن هنا انتهت الهجرة التى كانت واجبة على المسلمين، وأصبح المسلم يعبد الله بلا خوف فى أى مكان..

وفى يوم الفتح جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة.. فقال النبى الكريم: إن الهجرة قد مضت لأصحابها، أى أن الوقت الذى كانت فيه الهجرة واجبة قد انتهى وانقطع بفتح مكة، وأصبح الإسلام قويا عزيزا..

لكن هناك هجرة من نوع آخر لا تنتهى، وتلازم المسلم فى كل زمان ومكان، إنها هجرة تحقق معنى قوله تعالى:

﴿ ففِرُّوٓا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الذاريات /٥٠)

إنها هجرة بالقلب من الشرك والضغينة والحقد والحسد إلى نور التوحيد وصفاء القيم..

إنها هجرة بالعقل من أفكار السوء والهدم والتدمير إلى فكر راشد بناء..

إنها هجرة بالجوارح من قبيح الفعال وسيء الخصال وسوء الأعمال إلى طهارة السلوك وفعل الخير والبر والمعروف..

إنها هجرة بالحياة كلها إلى مناهج الدين ومقاصد الشريعة وحقائق الوحى.

إنها جهاد لحماية العقيدة والدفاع عن المقدسات والذود عن الأعراض والأموال..

وتلك هى الهجرة الدائمة التى لا تنقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الرجل جاء يسأل عن الهجرة، عندئذ قال النبى ﷺ:

لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا.

وفى رواية:

إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير..

عمل الخير يعدل الهجرة

الإسلام حريص على أن يؤدى كل مسلم عمله المنوط به على خير وجه لينفع به نفسه وأمته، ويستطيع المسلم أن يكسب حلالا طيبا فى كل مكان من أرض الله الواسعة، وليس شرطا أن يقيم فى بقعة خاصة حتى ولو كانت مكة المكرمة أو المدينة المنورة، وليس معقولا أن يتوافد الناس جميعا ليقيموا حول الكعبة المشرفة أو حول المسجد النبوى الشريف..

قال الله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

(الملك / ١٥)

ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر فى صدر الإسلام كانت الهجرة واجبة من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فى المدينة المنورة حتى يحفظوا دينهم ويصونوا عرضهم وحرماتهم، فلما فتح الله مكة على المسلمين فى العام الثامن للهجرة ودخل الناس فى دين الله أفواجا — لم تعد الهجرة مطلوبة فى حد ذاتها، وإنما يعبد المسلم ربه فى كل مكان، ويسعى بالخير للناس جميعا..

ولقد سئل رسول الله ﷺ كثيرا عن الهجرة فأفتى بأنه لا هجرة بعد فتح مكة، وجاء أعرابى من البادية يريد أن يترك موقعه وأهله، ويسكن المدينة المنورة، فسأله رسول الله ﷺ وناقشه ونصحه ودار حوار هكذا:

سأل الأعرابى رسول الله ﷺ عن الهجرة.

فقال الرسول الكريم: ويحك إن شأن الهجرة لشديد..

أى أن الهجرة شاقة بالنسبة لك حيث إنك مرتبط بوطن وأهل ويشق عليك مفارقتهم، ولك ظروف وأحوال ألفتها فى معاشك يصعب عليك تغييرها.

ثم سأله الرسول ﷺ: فهل لك من إبل؟ قال الرجل: نعم، أى أن الرجل يملك ثروة من الإبل التى يرعاها ويستثمرها..

ثم سأله الرسول ﷺ: فهل تؤتى صدقتها؟ قال الرجل: نعم..

لقد سأله الرسول الكريم عن شكر النعمة فإن الثروة نعمة سواء كانت من الإبل أو من العقارات أو الزروع والثمار أو من الأموال السائلة..

وشكر النعمة يكون بإخراج الزكاة والصدقات لذوى الحاجات، ويمتد النفع بهذه النعمة إلى الآخرين..

فلما أجاب الرجل بالإيجاب أوصاه الرسول ﷺ بملازمة هذا العمل ومداومة هذه الصدقات فإن الله يحب عباده العاملين المتصدقين..

وعندئذ قال النبى ﷺ: **فاعمل من وراء البحار (أى القرى) فإن الله لن يترك (ينقص) من عملك شيئا.**

الحياة ساعة وساعة

خلق الله تعالى الإنسان مادة وروحا، وجعل حياته قائمة على ما يصلح البدن ويقوى الروح..

والإسلام يجمع بين الدين والدنيا، ولا رهبانية فى الإسلام، والدعاء المفضل للصالحين هو قول الله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(البقرة / ٢٠١)

والإسلام لا يحرم طيبات الحياة، وإنما يمنع من الحرام والإسراف، فالإنسان مطالب بالعمل والسعى فى حدود ما شرع الله، فإذا جمع المال اقتصد فى نفقاته، فلا يبخل على نفسه وأهله ولا يسرف تحقيقا لقول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(الفرقان / ٦٧)

وذات يوم قال أحد الصحابة وهو حنظلة الأسيدى وكان من كتاب الوحى: لقينى أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، أى أصبح منافقا لا يستقر على حال، فقال أبو بكر: سبحان الله ما تقول؟! لقد تعجب أبو بكر الصديق من جواب حنظلة واستفسر عن سر هذا الجواب.

فقال حنظلة: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا نراها رأى العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا (أى انشغلنا) الأزواج والأولاد والضيعات (الأموال) فنسينا كثيرا..

إن حنظلة هنا يقارن بين موقفين: الموقف الأول حين يلتقى برسول الله ﷺ ويسمع مواعظه ووصفه للجنة ونعيمها والنار وعذابها فتقشعر الجلود، وتخشع القلوب، وتبكى العيون، وتصفو الأرواح وتتجلى أنوار الله على الإنسان..

الموقف الثانى عندما ينتهى اللقاء برسول الله ﷺ، ويذهب حنظلة إلى البيت ويجالس زوجه وأولاده ويبحث شئون أمواله، فيضحك ويلعب ويلهو، ويكون على حال أخرى لا تناسب الحال الأولى..

لقد ظن حنظلة أن المفارقة بين الموقفين تعد نفاقا، وطالما أنه لم يستمر على الحال الأولى فى صفائها فقد أذنب ذنبا عظيما..

لقد أرق هذا الموقف حنظلة وأراد أن يستفسر ويستفتى رسول الله ﷺ فخرج فلقيه فى الطريق أبو بكر، ولما ذكر ذلك قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، وانطلقا معًا حتى دخلا على رسول الله، فتكلم حنظلة وتكلم أبو بكر رضى الله عنهما فطمأنهما الرسول ﷺ وبين لهما أن الحياة لا تستمر على وتيرة واحدة، ولا تبقى على حال معين، والحياة ساعة جد وساعة مرح، وساعة للدنيا وساعة للآخرة، وساعة للعمل وساعة للراحة، وهكذا ولو استمر الإنسان فى ساعة صفائه الروحى ولم يتحول عنها لوصل إلى مرتبة عليا تجعله أهلا لمصافحة الملائكة ورؤيتهم رأى العين ولكن طبيعة الإنسان غير هذا، فعليه أن يمارس حياته فى حدود ما شرع الله بلا غلو ولا تفريط..

إن حنظلة وأبا بكر رضى الله عنهما ذهبا إلى رسول الله مهمومين محزونين، وعندئذ قال النبى ﷺ:

يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق.

وفى رواية:

والذى نفسى بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات.

استيقاظ الضمير

طبيعة الإنسان أنه قد يخطئ، لكن الاستمرار على الخطأ خطيئة أخرى، والعاقل هو من ينتشل نفسه من وهدتها، ويصلح ما وقع فيه، ويتجاوز خطيئته إلى عمل صالح وتوبة نصوح..

وإذا كان القانون – أيا كان مصدره – قد جعل لجرائم الإنسان عقوبات تلاحقه ردعًا عن الجريمة ومنعا من انتشارها، فإن عدل الله عز جل قد شرع الحدود لجرائم القتل والزنا والسرقة وغيرها زواجر وجوابر، فهى تزجر عن ارتكاب المعصية، وتجبر الذنب وتطهر الإنسان من جريمته وتمنحه توبة يستقيم بعدها على الطاعة ويلتزم بالصراط المستقيم..

وذات يوم جاءت المرأة الغامدية ووقفت أمام رسول الله ﷺ وقالت بلسان الندم والحسرة: يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى.. تريد أن يقيم عليها حد الزنا وهو الرجم حتى الموت لأنها كانت امرأة محصنة أى متزوجة، واستيقظ ضميرها بعد ارتكابها للفاحشة، واعتقدت أن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة..

لكن رسول الله ردها ولم يلتفت إليها لاحتمال أن تكون فى غير وعيها أو لا تعرف حقيقة الزنا الموجب للحد، فلعلها وقعت فى مقدمات الزنا ولم تمارسه..

ورجعت المرأة ثم جاءت فى اليوم التالى وقالت: يا رسول الله لم تردنى فوالله إنى حبلى..

لقد ارتكبت هذه المرأة جريمة الزنا وحملت سفاحا وأصرت على تطهير بدنها، فقال لها رسول الله: إما لا فاذهبى حتى تلدى.

يعنى طالما أنت قد أبيت أن تسترى على نفسك وتتوبى وترجعى عن قولك فلا يمكن إقامة الحد عليك وأنت حبلى، فما ذنب الجنين، فنصحها رسول الله أن تنتظر حتى تلد ثم تأتى..

فلما أتمت حملها ووضعت جاءت بالصبى فى خرقة وقالت: هـذا قـد ولدتـه.. فاستعجلت المرأة إقامة الحد عليها تطهيرا لبدنها، وتوبة عـن جريمتـها، وإيثـارا لمغفرة الله عز وجل وطمعا فى رحمته سبحانه فى الآخرة..

ولم يكن لدى رسول الله بوليس آداب يتعقب مثل هذه الحالات، لكنه الإيمـان يفعل المعجزات.

ونظر رسول الله ﷺ إلى الوليد فخشى عليه من فراق أمه فنصحـها مـرة أخـرى بـأن ترجـع لـترضع وليدهـا حتـى يسـتقل عنـها وقـال: اذهبـى فأرضعيـه حتـى تفطميه..

فلما أتم الوليد زمان الرضاعة وفطمته أتت بالصبى فى يده كسرة خبز وقـالت: هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام..

فلم يكن بد أمام رسول الله إلا أن يدفع بالصبى إلى رجل من المسلمين يتكفل به ويرعاه، ثم أمر بالمرأة فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها..

وأثناء الرجم أقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فسال الـدم وتطـاير علـى وجه خالد، فاستشاط غضبا وسب المرأة، فسمع نبى الله سب خـالد لهـا فغضـب وقال: مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبـة لـو تابـها صـاحب مكـس لغفر له».

إن هذه المرأة قد استيقظ ضميرها قـأقبلت باختيارهـا الحـر وتقبلـت إقامـة حـد الرجم عليها حتى تلقى الله طاهرة مطهرة.. هذه التوبة النصـوح هـى أعلـى أنـواع التوبة وهى تغسل أعلى أنواع الذنوب كالمكس وهو أخذ أموال النـاس بغـير حقـها وصرفها فى غير وجهها..

وعقب وفاة هذه المرأة قام المسلمون بتغسيلها والصلاة عليها وتقـدم الرسـول ﷺ وأمَّ المسلمين فى صلاة الجنازة..

وتعجب عمر بن الخطاب وقال: تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت.

عندئذ قال النبى ﷺ:

لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجـدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى.

الندم توبة

الإنسان يخطئ ويصيب، والمطلوب منه هو أن يغالب هواه ويحرص على الاستقامة، فإن زل أو أخطأ فلا يقيم على الخطأ، بل يندم ويبكى على خطيئته، ويجدد العهد أمام الله تعالى ويكثر من العمل الصالح..

ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس بين أصحابه فى المسجد، فقال الرجل: إنى أصبت حدا..

وفى رواية: إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها.. أى أنه استمتع بها بالقبلة أو المس باليد دون أن يزنى بها..

ووقف الرجل أمام رسول الله معترفا بالخطأ، نادما على ما فعل، يسأل الكفارة وقال: فأنا هذا فاقض فىّ ما شئت.

فقال له عمر بن الخطاب: لقد سترك الله، لو سترت على نفسك..

لقد أراد عمر أن يخفى الرجل فعلته طالما أن الله قد ستره، فلا يفضح نفسه، وليس فيها ما يتعلق بحقوق العباد.. فهى موقف شخصى انتهى، وعليه أن يلتزم بالاستغفار، ويجدد التوبة، فهذا يكفى..

لكن الرجل أراد أن يستوثق من رسول الله ﷺ، ورأى الرجل أن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، ثم هو يقدم درسا يتناقله الناس عن رسول الله.. ولما عرض الرجل موقفه سكت رسول الله حتى أقيمت الصلاة، وصلى المسلمون جماعة خلف المصطفى الكريم..

وعقب الانتهاء من الصلاة قام الرجل وأعاد قصته على مسمع رسول الله، وهنا تلى الرسول الكريم قول الله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة هود - ١١٤)

ثم وضح له الموقف قائلا: أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال الرجل: بلى يا رسول الله.

قال ﷺ: ثم شهدت معنا الصلاة؟ قال الرجل: نعم يا رسول الله.

والمعنى أن الرجل تطهر وصلى ، والذنوب تتساقط مع قطرات الماء، والعمل الصالح يمحو السيئات..

وحين اطمأن الرسول إلى صدق الرجل قال له: فإن الله قد غفر لك حدك أو ذنبك..

وتساءل الصحابة: يا نبى الله هذا له خاصة؟ يعنى هل هذا الحكم خاص بهذا الرجل وحده؟..

عندئذ قال النبى ﷺ: **بل للناس كافة.**

الاقتصاد فى الطعام والشراب

الإنسان فى حاجة إلى الطعام والشراب ليحافظ على بناء جسمه، لكن بناء الجسم ليس هدفا فى حد ذاته، وإنما الجسم القوى يستعان به على قضاء المصالح الخاصة والعامة، وعلى العبادة لله تعالى وحسن المعاملة مع خلق الله..

والمسلم ليس شرهًا على مأكول أو مشروب، وإنما هو يقتصد فى مأكله ومشربه حتى لا يصاب بالتخمة وما ينجم عنها من أمراض.. فإن هدى رسول الله ﷺ أن يكون ثلث البطن للطعام وثلث للشراب وثلث للهواء..

وذات يوم دخل ضيف على رسول الله ﷺ ، وكان هذا الضيف كافرا، فأكرمه الرسول وعمل على راحته فأمر لهذا الضيف بشاة فحلبت فشرب الضيف حلابها ثم أمر بشاة أخرى فشرب حلابها ثم أمر بشاة أخرى فشرب الرجل حلابها حتى شرب حلاب سبع شياه..

لقد كان هذا الضيف الكافر نهما أكولاً يشاركه الشيطان طعامه وشرابه، لأنه لا يعرف البدء باسم الله قبل الأكل، ولا يعرف الحمد لله بعده..

ثم إن الكافر حريص على الحياة المادية، وأقصى آماله تنحصر فى المآكل والمشارب والشهوات ، وليس عنده ما يسمو به أو يتسامى به عليها.. ثم حدثت المفاجأة، لقد أسلم هذا الضيف فى صباح اليوم التالى لما رآه من كرم الخلق المحمدى وحسن الضيافة وشرف الحديث وأمانة الكلمة..

فلما أمر الرسول ﷺ فى هذا الصباح بحلب شاة لهذا الضيف شرب الرجل حلابها فأمر الرسول بحلب شاة أخرى فلم يستطع الرجل إكمال شرب لبن الشاة الثانية واكتفى بشاة واحدة..

لقد اتسع صدر الرجل للإيمان وانشرح للإسلام فلم يعد له شره فى المآكل والمشارب وأصبح يبدأ باسم الله وينتهى بالحمد لله، فلم يعد للشيطان سبيل عليه..

وتحولت الهمة من دناءتها إلى علیائها، وأصبح للرجل آمال فى الباقيات الصالحات.. وتحول العقل من ضيق المادة إلى آفاق الملأ الأعلى، وامتلأ القلب نورا وهداية.. عندئذ قال النبى ﷺ:

المؤمن يشرب فى مِعَى واحد ، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء..

الحياة ضراء وسراء

يمنح الله تعالى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، والمال فى حد ذاتـه ليـس دليـل كرامة، وإنما كرامة المرء فى دينـه وخلقـه، فمـن تمسـك بـالأخلاق وعمـل بـالدين وعاش للفضيلة فهو السعيد الكريم فى الدنيا والآخرة، قل ماله أو كثر، ومـن نـأى عن الأخلاق وجهل الدين وتمرد على الفضيلة فهو الحقير المهين مهما كـان جاهـه ومهما كثر ماله..

ولو كانت الدنيا جزاء لمحسن أو ثوابـا لمؤمـن لكـان أحـق بـها الأنبيـاء عليـهم الصلاة والسلام، ولكن الأنبياء عاشوا على الكفاف وتحملوا البأسـاء وضـاق عليـهم العيش ومع ذلك فهم القدوة الحسنة والمثل الأعلى والإنسان الكامل..

وذات يوم خرج رسول الله ﷺ من بيته فـإذا هـو بـأبى بكـر وعمـر رضـى الله عنهما والتقى بهما الرسول على غير موعد، واجتمعوا فى غير مناسبة، وفى سـاعة لم يكن معتادا فيها الخروج..

فسألهما الرسول: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟

قالوا: الجوع يا رسول الله، فقـال ﷺ : وأنـا والـذى نفسـى بيـده لأخرجنـى الذى أخرجكما..

أى أن الرسول وصاحبيه خرجوا من بيوتهم التماسـا لطعام بعد أن اشـتد عليـهم الجوع وليس فى بيوتهم ما يأكلون منه أو يشربون..

ودعا الرسول صاحبيه إلى الذهاب معه إلى بيت رجل من الأنصار عنـده سـعة، فطرق عليه الباب فإذا هو ليس فى بيته، فلما رأته زوجة الأنصارى قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من المـاء (يـأتى بماء عذب).

وأثناء الحديث جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى..

لقد استبشر الرجل وفرح وحمد الله على أن منحه هذه الزيارة من الرسول الكريم وصاحبيه وعدها تشريفا من الرسول له ولأهل بيته.. وانطلق الرجل فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا من هذه، أى أن الرجل سارع بتقديم غصن من النخل يجمع هذه الأنواع من البلح مبادرة منه إلى إكرام ضيفه حتى يعد لهم الطعام وأخذ الرجل المدية ليذبح لهم شاة، فقال له الرسول: إياك والحلوب، أى لا تذبح شاة ذات لبن فإن اللبن ينتفع به، فذبح الرجل شاة أخرى وقدم الطعام فأكل الرسول وصاحباه من الشاة ومن البلح وشربوا حتى شبعوا ورووا..

عندئذ قال النبى ﷺ لأبى بكر وعمر:

والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم..

أمانة المسئولية

من تقلد أمرًا من أمور المسلمين فهو خادمهم فى ذلك الأمر حتى يحسنه ويتمه على أكمل وجه، وليست المناصب لجمع ثروة أو للسيطرة، فإن الله تعالى سائل كل إنسان عما استرعاه.

ولكن بعض الناس يتخذ من موقعه فى السلطة مغنما، ويتبارى الناس فى كسب وده بالرشوة المقنعة التى يسمونها هدية، وهى فى الواقع سحت ومال خبيث يأكله فى بطنه نارا، ويكوى به يوم القيامة جمرا، ويحمله على رأسه فى موقف الحساب عارا وفضيحة ونكالاً.

إن المقصود من هذه الرشوة المقنعة التوسل إلى صاحب الجاه فى استقطاع حق الغير، أو الحصول على ما لا يستحقه المهدى، وآية ذلك أنه لو تولى المنصب شخص آخر لسلمت الرشوة إليه فهى مرتبطة بالمنصب ولا علاقة لها بمحبة من يتولى المنصب لذاته..

وذات يوم استعمل الرسول ﷺ رجلا من قبيلة أزد شنوءة ويقال لهم: الأزد أو الأسْد ويسمى هذا الرجل عبد الله بن اللُّتْبيَّة، جعله الرسول الكريم عاملا على الصدقة يجمع الزكاة من أصحابها يأتى بها إلى الرسول ﷺ ليوزعها على مستحقيها من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ومصالح المسلمين العامة.

ولما انتهت مهمة الرجل فى جمع الزكاة عاد إلى المدينة ومعه مال كثير فجعل يقول للرسول ﷺ: هذا لكم أى الزكاة التى تخصكم، وهذا لى أهدى لى أى أن الناس منحوه هذه الهدايا خالصة له..

وظن الرجل حِلَّ هذه الهدية ولم يدرك أن الناس قدموها له طعما كى يتغافل عن تنفيذ مهمته على الوجه الأكمل، ولكن الرسول ﷺ كان يحاسب عماله ويبين لهم حدود اختصاصاتهم ويوضح لهم الحق والواجب ومعالم المسيرة الصحيحة..

عندئذ قام الرسول الكريم خطيبا على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدى لى، أفلا قعد فى بيت أبيه أو فى بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟! والذى نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر (تصيح) ثم رفع يديه وقال: اللهم هل بلغت؟!

لا طاعة فى معصية الله

الناس فى حاجة إلى أمـراء أو ولاة، أو رؤسـاء للقيـام بـالعدل بينـهم، ومراعـاة أمورهم، وتيسير أحوالهم، وتفقد معايشهم، والحفاظ على الدين والحرمات..

ومن حق الوالى أن يطاع فى غير معصية وأن يحظى بتقديـر النـاس حتـى تظـل الكلمة واحدة، وحتى يستمر الصف مترابطا، وحتى تكون الجهود كلها فـى إطـار المصلحة العامة.. فإن الفرقة لا تأتى إلا بشر وإن النزاع لا يعقبه إلا الفشل.

وذات يوم بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار وأمرهـم أن يسمعوا له ويطيعوا..

وحدث من هؤلاء الجنود شىء أغضب قائدهم فما كان مـن هـذا القـائد إلا أن أمرهـم بجمع الحطب وإيقاد النار ثم استدرجهم قائلا: ألم يأمركم رسـول الله ﷺ أن تسـمعوا لى وتطيعوا؟!

قالوا: بلى..

هنا فاجأهم الأمير قـائلا: فادخلوهـا، وأمرهـم بإلقـاء أنفسـهم فـى النـار التـى أوقدها..

ووقف الجنود حيارى هل يلقون بأنفسهم فى النار تنفيذا لأمر قائدهم ولو كـان خطأ أم يرفضون الأمر إبقاء على حياتهم من التهلكة؟

انقسم الجنود قسمين أو فريقين، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخـرون: إنـا فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار أى أننا آمنا بالله وبالرسول حتى لا ندخل نار جهنم فكيف ندخلها فى الدنيا..

ففريق من الناس أخذ الأمر علـى ظـاهره وغفـل عـن حكمتـه وحـاول أن يلقـى بنفسه فى النار استجابة لنداء هذا الأمير الغاضب، وفريق تعقـل الحكمـة وحـاول

أن يشرح موقفه ورفض بإصرار مطلب أميره الغاضب، فكانوا كذلك حتى سكن الغضب وهدأ الأمير وطفئت النار..

وقد قيل إن موقف هذا الأمير كان امتحانا لجنده وقيل إنه كان مازحا، وأيا ما كان فلما عادوا من مهمتهم التى كلفوا بها وقدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ما حدث، عندئذ قال ﷺ للذين أرادوا أن يدخلوها: **لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين قولاً حسنا ثم قال: لا طاعة فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف.**

لا استثناء فى تطبيق الحدود

الحدود فى الإسلام طهارة للفرد، وحماية للمجتمع، وأمن للمواطنين، وتطبيق الحدود لا يعرف الاستثناء، ولا يفرق بين أبيض وأسود، ولا بين كبير وصغير وإنما الجميع أمام الله سواء، وشأن الحاكم أنه قدوة فى نفسه وأهله، فلا يستأثر بشىء دون رعيته ولا يحمى أهله من القانون بل العدل فوق الجميع..

وفى العام الثامن للهجرة وأثناء فتح مكة سرقت امرأة من بنى مخزوم وهم قوم لهم شأن وشرف، وشاع بين الناس أمرها، وتحدثت قريش عمن يكلم رسول الله ﷺ فيها حتى يخفف عليها الحكم..

ومن المعلوم شرعا أن السارق والسارقة متى ثبت عليهما فعل السرقة وجريمتها فقد وجب قطع اليد اليمنى، فإن سرق مرة ثانية بعد تنفيذ الحكم السابق وجب قطع الرجل اليسرى، فإن سرق ثالثًا بعد تنفيذ الحكم الثانى وجب قطع اليد اليسرى، فإن سرق رابعًا قطعت رجله اليمنى وبذلك يصبح نكالاً وعبرة..

ولو فرض أنه سرق بعد هذه المراحل الأربع فجمهور العلماء على أنه يعزر بما يراه الإمام من حبس أو ضرب؛ ويرى بعض الأئمة أنه يقتل ولا يستحق أن يعيش..

نعود إلى قصة المرأة المخزومية واهتمام قريش بشأنها فلم يجدوا أحدا يجترئ أن يكلم رسول الله ﷺ إلا أسامة ين زيد بن حارثة فهو حبيب لرسول الله ﷺ وابن حبيبه، فقد كان أبوه يسمى يوما ما زيد بن محمد إلى أن حرم الله تعالى التبنى فصار يسمى زيد بن حارثة، وأمه السيدة أم أيمن كانت حاضنة لرسول الله ﷺ..

فذهب أسامة وكلم رسول الله فغضب المصطفى الكريم وتلون وجهه وقال له: أتشفع فى حد من حدود الله، فأدرك أسامة خطأه وقال: استغفر لى يا رسول الله..

عندئذ قام رسول الله ﷺ خطيبا وقال: **أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.**

كتمان أسرار المجتمع

القضايا الخطيرة فى حاجة إلى خطة محكمة، وهذه الخطة فى حاجة إلى سرية تامة حتى تظل فى مسارها دون عقبات، والمواطن الصالح يجب أن يكون أمينا على أسرار أمته ومجتمعه..

وعلى عهد رسول الله ﷺ وخلال فترة الإعداد لفتح مكة فى العام الثامن للهجرة حرص الرسول القائد أن تظل الخطة سرية ليحقق عنصر المفاجأة للأعداء، لكن أحد المسلمين ويسمى حاطب بن أبى بَلْتعة كتب رسالة إلى أهل مكة يعلمهم فيها بما عزم عليه الرسول من غزوهم وتطهير الكعبة من رجسهم ودفع الرسالة إلى امرأة من قريش كانت فى المدينة..

وما كان الله تعالى ليخذل نبيه، فنزل الوحى الأمين ليطلع المصطفى ﷺ على ما فعله حاطب، فبعث الرسول جماعة من فرسان المسلمين ليلحقوا بالمرأة وينتزعوا منها الرسالة، فأدركوا المرأة فى الطريق وأخذوا منها الرسالة، وبدأ الرسول ﷺ يحقق فى القضية واستدعى حاطبا يسأله عما دعاه إلى إفشاء أسرار المسلمين..

وقف الرجل يدافع عن نفسه قائلا:

لا تعجل علىّ، إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش، لم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئا..

نحن هنا أمام رجل زلت به قدمه، وأخطأ الوسيلة الصحيحة التى كان يمكن أن يحمى بها أهله المقيمين تحت جبروت الشرك والوثنية، وهو لم يفعل هذا

الفعل مكيدة للمسلمين أو محاولة لكسر شوكتهم فهو يوقن أن الله تعالى سينصر نبيه..

هنا صدقه الرسول ﷺ وقبل عذره وعفا عنه، لكن عمر بن الخطاب كعادته فى الغيرة الشديدة قال: دعنى أضرب عنق هذا المنافق..

فالتمس الرسول عذرا للرجل وقدّر له سابق جهاده..

وعندئذ قال النبى ﷺ :

إن الرجل صدقكم .. إنه قد شهد بدرا.. وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم.

من أدب المجلس

هناك قواعد ذوقية تراعى فى المجالس، وهى ذات دلالة على حسن الأدب، فمراعاة من يكون جالسا على اليمين فى الحديث والمأكل والمشرب من الأدب الرفيع.. ويحدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول: أتانا رسول الله ﷺ فى دارنا، أى أن الرسول الكريم زاره فى بيته، ولنتذكر أن الزائر هو الرسول، وأن المزور هو الخادم فإن أنسًا خدم رسول الله عشر سنين هى مدة إقامته ﷺ فى المدينة..

ويزداد الموقف روعة وجلالا عندما يستسقى رسول الله من أهل البيت، أى يطلب شيئا يشربه تأكيدا للمحبة والألفة والمودة، فإن الالتقاء على الموائد فيه تقريب للقلوب وتنمية للمشاعر..

ويسعى أنس بن مالك ليحلب شاة عنده، ولم يكن الحليب ليكفى الضيوف، لقد صحب الرسول أبا بكر وعمر وأحد الأعراب، فقام أنس بخلط اللبن بالماء، جاء به من بئر فى بيته، ليبرد اللبن ويكثره، ولا يعد هذا غشا فإن الغش ما يقصد به البيع..

وجاء أنس بهذا الشراب فأعطاه رسول الله ﷺ فشرب وكان أبو بكر الصديق يجلس عن يساره، وعمر بن الخطاب يجلس تجاهه، والأعرابى يجلس عن يمينه، فلما فرغ رسول الله من شربه بادره عمر بن الخطاب قائلا: هذا أبو بكر يا رسول الله..

لقد خشى عمر رضى الله عنه أن يعطى رسول الله الإناء للأعرابى قبل أبى بكر، فإن لأبى بكر سابقة فى الإسلام ونصرة للدين ودفاعا عن المسلمين لا يدانيه فى ذلك أحد..

ونسى عمر أن أبا بكر يجلس على اليسار، وأن الأعرابى يجلس على اليمين، فالأعرابى أولى، فالبداءة باليمين سنة، ثم إن هذا الأعرابى ليس له من اليقين والإيمان ما يجعله يؤثر أبا بكر عليه، فإن فى الأعراب أنفة، فأراد الرسول الكريم أن يتألف هذا الأعرابى ويرقق قلبه، ولم يشأ الرسول أن يستأذن الأعرابى ليتنازل عن حقه حتى تظل الأمور على سجيتها..

وفى موقف آخر صادف أن كان عبد الله بن عباس وهو غلام يجلس عن يمين الرسول الكريم فاستأذنه الرسول ليعطى من هو أسن منه فقال للغلام: أتأذن لى أن أعطى هؤلاء؟! فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبى منك أحدا.. فرفض الغلام أن يتنازل عن حقه ليس عن تكبر أو جفوة وإنما إيثارا لشرف الشرب عقب الرسول.. وأيا ما كان فإن عمر بن الخطاب أراد أن يكون لأبى بكر سبق على الأعرابى فى الشرب..

عندئذ قال النبى ﷺ: **الأيمنون ، الأيمنون ، الأيمنون**..

آداب الطعـام

هنـاك آداب شـرعية للمـأكل والمشـرب سـنها رسـول الله ﷺ ، فيـها تذكـير بالمنعم سبحانه، واحترام للنعمة..

وكان رسـول الله ﷺ قدوة حسنة فى كل تصرفاته الخاصـة والعامـة، ويحدثنـا عمر بن أبى سلمة، وكان غلاما يتيما فى كفالة رسول الله، لأن والده هو أبو سلمة الذى استشهد من أثر جرح أصابه فى غزوة أحـد، وأمـه السـيدة أم سـلمة إحـدى زوجات الرسول الكريم، تزوجها الرسول ﷺ بعد استشهاد زوجها، ومنحها وسام أم المؤمنين، وتكفل بأبنائها الصغار، يحنو عليهم ويرعاهم، ويحسن أدبهم..

عاش عمر بن أبى سلمة فى بيت النبوة، وأكل مع رسـول الله فـى إنـاء واحـد ولحداثة سنه كانت يده تطيش فى الإناء وتمتد إلى جوانبـه.. فبـدأ الرسـول ﷺ يعلمه آداب الطعام، وأولاها البدء باسم الله، ويستحب الجـهر بـها ليسـمع غـيره وينبهه عليها، وإذا تركها فى أول الطعام أتى بها فى أثنائـه، ويقـول: بسـم الله أوله وآخره، وتحصل التسمية بقول (بسم الله)، والأفضل أن يكملها ويقول: (بسم الله الرحمن الرحيم).

ومن الأدب أن يتناول المسلم طعامه وشرابه بيده اليمنى، ما لم يكن عنـده عـذر من مرض أو جراحة أو عجز.. وكان الرسول ﷺ يحب التيامن فى شـأنه كلـه، فالأشياء التى فيها تكريم تفعل باليمين، وغيرها يفعل بالشمال، فاليمين تقدم فـى الوضوء والغسل، ويكون دخول البيت والمسـجد بـاليمين، والخـروج منـهما يكـون بالشمال، ودخول دورات المياه وما شاكلها يكون بالشـمال، والخـروج منـها يكـون باليمين..

ومن آداب الطعام الأكل مما يلى الشخص، فمـد اليـد إلى مواضـع مختلفـة مـن المائدة فيه سوء عشرة، ووضع اليد فى جوانب الإناء المختلفة يسـتقذره الجليـس،

فحرصًا على المروءة والذوق يأكل المرء مما قرب منه، فإن وجدت مجموعة أطباق لألوان شتى فليكن الأخذ منها بحذر وأدب جم، وبلا مبالغة أو إسراف..

والإسلام حريص على تأليف القلوب وغرس المودة، وما أجمل أن يلتقى الناس على الموائد العامة والخاصة، فإن البركة تنزل حيث تكثر الأيدى على الطعام..

إن عمر بن أبى سلمة أكل مع رسول الله وجالت يده فى الإناء..

عندئذ قال النبى ﷺ :

يا غلام .. سم الله .. وكل بيمينك، وكل مما يليك..

إيثار الضيف

المسلم لا يعيش لنفسه فحسب، وإنما يتعاون مع إخوانه، ويتفاعل مع مجتمعه وقد يضحى فى سبيله، ويكرم الناس وقد يؤثرهم على نفسه..

وخير القرون قرن رسول الله ﷺ، وخير الناس بعد الأنبياء الصحابة رضى الله عنهم، فقد اقتفوا أثر النبوة، واستمسكوا بالعروة الوثقى، وبذلوا النفس والنفيس حبا لله ورسوله..

لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى مجهود أى أصابته مشقة وحاجة وسوء عيش وجوع؛ فأرسل النبى ﷺ إلى بعض نسائه يسأل عن طعام لديها، فقالت: والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك، لا والذى بعثك بالحق، ما عندى إلا ماء..

فلم يكن بيت النبى من زخرف ولم يكن يحوى ألوان الطعام والشراب، وإنما عاش رسول الله على الكفاف رغم أن الدنيا كانت تحت قدميه..

وحين لم يجد الرسول فى بيته ما يطعم هذا الجائع قال لأصحابه: من يضيف هذا الليلة رحمه الله؛ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى منزله، فقال لامرأته: هل عندك شىء؟ قالت: لا إلا قوت صبيانى، قال: تعلليهم بشىء؟ أى حاولى أن تصرفيهم عن رؤية الطعام وحضوره حتى لا يشاركوا الضيف عشاءه..

وهذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا فى حاجة إلى الطعام حينئذ، وإنما شأن الأطفال أن تمتد أيديهم لما يحتاجون إليه وما لا يحتاجون..

ولو أن الأطفال كانوا فى مخمصة لحرم تقديم طعامهم للضيف فإنهم أحق وأولى.

ثم قال الرجل لامرأته: فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنّا نأكل، فـإذا بدأ يتناول طعامه فقومى إلى السراج حتى تطفئيه..

وفى ذلك فضيلة لهذا الصحابى حيث آثر الضيف على نفسه وولده، وعمل كل ما يوفر للضيف راحته وهدوءه، وأطفأ السراج ليظل الطعام بأجمعه أمـام الضيـف، ولا يشعر بحرج إذا وجد أهل البيت لا يأكلون معه..

وهكذا قعد الرجل وزوجته وأكل الضيف حتى شبع..

وشكر الله تعالى لهذا الصحابى الجليل، وأعلم نبيه ﷺ بهذا الموقف العظيـم، فلما أصبح غدا الرجل على النبى ﷺ، وعندئذ قال النبى ﷺ:

قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة..

النهى عن الغيبة

المسلم حريص على أخيه المسلم يتفقد أحواله ويحفظ عرضه وماله، ويصون حرماته كلها، كذلك فإن المسلم حريص على أن تكون كلمته رقيقة مهذبة، بعيدة عن السوء والفحش ولغو الحديث..

وقد حرم الإسلام الغيبة، وهى ذكر الإنسان أخاه بأوصاف لا تليق، وتسئ إلى سمعته، وتنال من كرامته، وقد شبه القرآن المجيد الإنسان الذى يغتاب الناس ويقع فى أعراضهم بمن يأكل لحم أخيه الميت، وهى حالة أشد نكرا وأعظم جرما، وأبعد عن كل رشد.. قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

(الحجرات/١٢)

وقد حرص الرسول ﷺ على تعليم أصحابه محاسن الأخلاق، وكان يسائلهم ويحاورهم ليلفت أنظارهم ثم يقدم لهم النصيحة كى ترسخ فى أذهانهم بعد أن تهيأوا لقبولها.. وذات يوم قال الرسول ﷺ لأصحابه: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره..

فالغيبة هى أن تذكر إنسانا فى غيبته وبعيدا عن مسامعه بأوصاف يكرهها وتسىء إليه بقصد التشهير به أمام الناس..

لكن هناك أمور تباح فيها الغيبة بمعنى ذكر المساوئ لشخص ما، لا بقصد التشهير وإنما لغرض آخر صحيح، وذلك فى ستة مواضع هى:

١ – المظلوم يرفع شكواه إلى الحاكم.

٢ – المستغيث على تغيير المنكر ورد العاصى لمن يملك القدرة عليه.

٣ – المستفتى للعالم فى علاقته بالناس لتصحيحها وتقويمها.

٤ – المستشار لمن يطلب منه المشورة فى زواج أو بيع وشراء وغير ذلك.

٥ – المجاهر بفسقه وبدعته.

٦ – المعروف بلقب كالأعمش والأعرج والأعمى والقصير.. الخ. إذا كان من باب التعريف به لغيره وليس من باب التنقيص..

ولما ذكر الرسول ﷺ تعريف الغيبة قال الصحابة: أرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ يعنى لو ذكر الإنسان أخاه بعيب حقيقى فيه لا لغرض شرعى، بل لمجرد التنقيص والاستهزاء أيعد ذلك حراما ومن باب الغيبة؟!

هنا نبههم الرسول الكريم إلى أن ما يذكره الإنسان فى أخيه إن كان واقعا وصحيحا وعلى سبيل الاستهزاء به فهو غيبة محرمة شرعا وإن لم يكن فيه هذه المعايب فهو كذب، والكذب فسق وفجور..

عندئذ قال النبى ﷺ: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته.**

النهى عن التعصب

الإسلام حريص على الوحدة والتقاء الناس على الحب، يستشعرون معانى الأصل الواحد الذى يجمعهم وهو أبوهم الأول آدم عليه السلام، فإن الناس جميعا من آدم، وآدم من تراب، ولا يصح التفاضل بينهم بسبب العرق أو اللون أو النسب، وإنما التفاضل يكون بالإيمان والعمل الصالح.. قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

(الحجرات/١٣)

والإسلام يرفض العنصرية ، ويمقت التعصب، ويدعو إلى التسامح بحيث يعيش الناس عباد الله إخوانا، بلا أحقاد أو ضغائن، وبلا مكر أو خديعة، وبلا تحزب أو طائفية.. قال الله تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾.

(آل عمران/١٠٣)

وذات يوم كان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ فى غزوة من الغزوات التى يدافعون فيها عن دينهم ويردون كيد المعتدين.. والتقى غلامان، غلام من المهاجرين الذين هاجروا من مكة واستقروا فى المدينة، وغلام من الأنصار الذين هم أهل المدينة واستقبلوا المهاجرين أحسن استقبال، التقى هذان الغلامان على بئر ماء، كل منهما يريد أن يسقى أولاً، فحدث نزاع بينهما فضرب الغلام المهاجرى أخاه الغلام الأنصارى..

تفاقم الموقف فتنادى الأنصارى وقال: يا للأنصار، وتنادى المهاجرى وقال: يا للمهاجرين، أى أن كلا منهما أراد أن يستثير جماعته لمناصرته على الآخر،

فاستغاث أحدهما بالأنصار واستغاث الآخر بالمهاجرين، وكادت تقع فتنة لولا أن الرسول ﷺ تدارك الموقف، وخرج على الفور بمجرد سماع صوت الاستغاثة وقال: ما بال دعوى الجاهلية، أى لماذا تنظرون إلى الموقف نظرة طائفية من بقايا العهد الجاهلى قبل الإسلام، عندما كان يهب القوم لنصرة أخيهم دون تريث، ودون معرفة المحق من المبطل..

فقالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار..

أى أنهم ذكروا للرسول أصل الموقف وهو أن أحد المهاجرين ضرب أحد الأنصار وأعلمهم الرسول ﷺ أن المسلم يبحث عن الحق ويناصره، ويحرص على العدل ويقيمه، ويدعو إلى الإنصاف ويلتزم به، وليست المسألة مرتبطة بقبيلة أو عنصر أو نسب، فمن كان مظلوما وجب أن يناصر حتى يُرد إليه الحق، ومن كان ظالما وجب أن يمنع من ظلمه حتى لا يتمادى فيه، وهذا هو منهج العدل الذى يجب أن يسود مجتمع المسلمين..

عندئذ قال النبى ﷺ: **دعوها فإنها منتنة، وقال: لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره.**

اليمين الفاجرة

الناس فى حاجة ماسة إلى دين الله تعالى، يستقر فى القلب، ويحكم السلوك والأخلاق، حتى تستقيم المعاملات، ويؤدى كل إنسان واجبه ويأخذ حقه، دون منازعات أو مخاصمات..

وفى غيبة المراقبة لله تعالى تضيع الحقوق وتهدر الكرامات وتنتهك الأعراض، لأن القوانين مهما أحكمت لا تصل إلى الإنسان فى خلواته ومشاعر نفسه وخلجات فؤاده، ثم إن القانون يحميه البشر وليسوا معصومين..

إن المسلم الحقيقى يدرك معنى قوله تعالى على لسان لقمان لابنه وهو يعظه:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة لقمان / ١٦)

وذات يوم جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبى ﷺ يرفعان إليه شكوى، فقال الحضرمى: يا رسول الله إن هذا قد غلبنى على أرض لى كانت لأبى، وقال الكندى: هى أرضى فى يدى أزرعها ليس له فيها حق.

وأمام هذا التعارض لا يملك القاضى إلا أن يطلب من كل منهما إثبات ما يدعيه، فقال النبى ﷺ للحضرمى: ألك بينة؟! فقال: لا، فقال الرسول: فلك يمينه..

فالمدعى صاحب الحق إذا لم يقدم البينة وهى الشهود الذين يظاهرونه ويؤيدونه فى دعواه لا يبقى إلا أن يحلف المدعى عليه، فالقاضى لا يطلع على دخائل النفس البشرية، والحل الشرعى هو بينة المدعى أو يمين المدعى عليه.. لكن

الرجل المدعى فى قضيتنا هذه رفض أن يعتمد الرسول ﷺ يمين المدعى عليه وقال:

يا رسول الله إن الرجل فاجر، لا يبالى على ما حلف عليه، وليس يتورع من شىء، فقال الرسول ﷺ: ليس لك منه إلا ذلك.

فالقضاء له طرقه فى الإثبات ، وليس يتعامل مع ما تكنه الصدور، ولا يعلم القاضى السر المكنون..

ومن هنا تتأكد أهمية التعامل بالدين، والحرص على مراقبة الله، وامتلاء القلب بخشية الله فإن هذا هو الحل الأمثل لمشاكل الناس وقضاياهم، وهو الذى يمنع الظلم ويقضى على الزور وقول الباطل.. قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

(النمل/ ٧٤، ٧٥)

وانطلق الرجل الكندى ليحلف..

عندئذ قال النبى ﷺ: **أما لئن حلف على ماله ليأكل ظلما ليلقينَّ الله وهو عنه معرض.**

وفى رواية: **من اقتطع أرضا ظالما لقى الله وهو عليه غضبان.**

اليمين لا تمنع من خير

يتعامل المسلم فى كافة شئون حياته بالصدق والأمانة، ويؤدى ما عليه، ويسأل الله الذى له، لكن هناك مواقف أحيانا تستدعى أن يحلف الإنسان تأكيدا، ولا حرج فى ذلك شرعا، كل ما فى الأمر أن المسلم لا يحلف كاذبا ولا يجعل اليمين تمنعه من فعل خير وبر، وعليه أن يستشعر عظمة المحلوف به، فإن الحلف فى الإسلام لا يكون إلا بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته..

وأحيانا بعدما يحلف المسلم على ترك شىء يرى أنه فى حاجة إليه أو قد يكون الإنسان حلف فى حال الغضب ولما أفاق أحس بخطأه، هنا شرع الله تعالى كفارة اليمين وهى إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة فإن عجز المرء صام ثلاثة أيام.. قال الله تعالى:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(المائدة / ٨٩)

وذات يوم جاء أبو موسى الأشعرى فى رهط من الأشعريين (جماعة من أهل اليمن)، أثناء غزوة تبوك، وكان الوقت وقت عسرة وشدة على المسلمين، جاء هؤلاء الرهط يريدون المشاركة فى الجيش ويطلبون من الرسول ﷺ أن يجد لهم إبلا يركبونها، فقال لهم الرسول وهو غضبان: والله لا أحملكم، وما عندى ما أحملكم عليه..

فرجع أبو موسى حزينا من منع رسول الله، ومن مخافة أن يكون الرسول ﷺ قد غضب عليه، وقد كان هؤلاء الرهط حريصين على شرف المشاركة فى الجهاد لنصرة دين الله عز وجل، ولكن الرسول كان مشغولا بإعداد الجيش ولم تكن الميزانية تسمح بحمل هؤلاء، وكان الوقت شديد الحر، واستغل الموقف بعض المنافقين ليشيعوا الأقاويل ويثبطوا العزائم، وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(التوبة /٨١)

وبعدما رجع أبو موسى الأشعرى إلى قومه حزينًا لم يلبث إلا قليلا حتى استدعاهم رسول الله ﷺ وأعطاهم خمسا من الإبل يركبونها للمشاركة فى الجهاد..

لكن القوم – مع شدة فرحتهم ظنوا أن الرسول ﷺ نسى يمينه وقالوا:

لا يبارك الله لنا ، أتينا رسول الله ﷺ نستحمله فحلف ألاَّ يحملنا ثم حملنا..

فجاءوا إلى الرسول الكريم وقالوا: أفنسيت يا رسول الله ؟

فشرح لهم الرسول الموقف وهو أنه لم يكن عنده إبل يحملهم عليها عندما رغبوا فى المشاركة فى الجيش، ولما يسر الله تعالى الأحوال وتوفرت الإبل لبى هذه الرغبة الشريفة وأرسل إليهم بالإبل.. وأما قضية اليمين فليست تمنع من البر والخير طالما أن الله تعالى شرع كفارة لليمين.. عندئذ قال النبى ﷺ:

ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير.

قدسية حقوق الجـار

الجار له حقوق كثيرة فى الإسلام، وقد خصه الرسول بمزيد العناية والتوجيه، وحق الجار مقدس سواء كان الجار مسلما أو غير مسلم..

ومما لا ريب فيه أن الدعوة إلى الإسلام ليست كلامـا يـردد، وليسـت شـعارات ترفع وإنما هى سلوك وقيم وأخلاق، والدعوة بالقدوة الحسنة هى أبلغ تأثيرا فـى النفوس، وأقوى جذبا لهذا الدين الخالد..

إن إسلامنا دعوة عالمية باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والنـاس فـى حاجة إلى أن يعيشوا بالإسلام، ويتعاملوا بالقرآن، ويكونوا عباد الله إخوانا..

وقد انتشر الإسلام فى أماكن كثيرة، بحسن المعاملة وطيب الكلام وكرم الأخلاق للتجار المسلمين الذين جابوا أفريقيا وآسيا بالإسلام وللإسلام.

وذات يوم سأل الرسول ﷺ أصحابه قائلا:

ما تقولون فى الزنا؟ قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامـة، ثـم قال لهم: ما تقولون فى السرقة؟ قالوا: حرمها الله ورسوله فهى حرام..

لقد أراد الرسول ﷺ أن يستشعر الناس عظم الذنب والجريمة التى تترتب على ارتكاب الزنا والسرقة..

فإن الزنا انتهاك للأعراض وتضييع للأنساب وتنتشـر معـه الأمـراض السرية الفتاكة التى تعصف ببنى الإنسان، ثم إنه يضـع الإنسـان الـذى كرمـه الله فـى عداد العجماوات، ويهوى به إلى مكان سـحيق مـن الحيوانيـة العميـاء، ولـذا فقد جعل الإسلام الرجم حتى الموت عقوبـة للزنـاة الذيـن سـبق لهـم الـزواج، وجعـل الجلد مائة جلدة للزناة الذين لم يسبق لهم زواج شرعى..

كذلك فإن السرقة أكل لأموال الناس بالباطل، واعتداء صارخ على حقوق الغير وإشاعة للرعب والفساد بين الناس، ولذا جعل الله حد السرقة قطع اليد عقوبة رادعة..

لكن إذا كان هذا هو شأن الزنا والسرقة عموما فكيف إذا وقعا بين الجيران، وبدأ الناس يعتدون على أعراض جيرانهم ويسرقون أموالهم ولم يعد الجار مؤتمنا على جاره؟!

عندئذ قال النبى ﷺ:

لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره، ولأن يسرق الرجل عشرة بيوت أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره.

مداراة الناس

الحياة الاجتماعية تحتاج إلى الفطنة، بحيث يستبين الإنسان مواقع أقدامه فلا يزل ولا يسئ إلى أحد ولا يساء إليه، ويعامل الناس برفق طالما كان ذلك ميسورا ولا يترتب عليه مفسدة دينية أو دنيوية..

وأحيانا تكون الكلمة الطيبة مع غلاظ القلوب مدعاة لتأليفهم وترويضهم على الحب والصفح والتسامح..

وتحدثنا السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن رجلا استأذن على النبى ﷺ، وكان هذا الرجل هو عُيينة بن حصن من الأعراب الجفاة، وكان ممَن أظهر الإسلام ولم يؤمن قلبه..

فقال رسول الله ﷺ: ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة، وفى رواية: بئس رجل العشيرة، وفى رواية: بئس أخو العشيرة..

فالرسول ﷺ حين علم أن المستأذن هو عُيينة بن حصن، بيّن حاله ووصفه بما هو عليه من الجفاء والغلظة وسوء العشرة، فهو رجل سيئ الخلق فى قومه، وقد ذكر الرسول هذا المعنى لمن كان يجلس معه قبل أن يأذن لهذا الرجل فى الدخول..

فلما دخل الرجل وجلس مع الرسول ﷺ ألان له الرسول الحديث، وتكلم معه بهدوء، ولم يُسمعه شيئا يؤلمه أو يغضبه بل أعطاه شيئا من المال تأليفا له، وترغيبا له فى الدين، ومعالجة نفسية لما يضمره من بغض وحقد على الرسول والمسلمين..

وعجبت السيدة عائشة من هذا الموقف كيف أن الرسول حذر منه قبل الدخول ثم ألان له الكلام بعد الدخول.. فقالت: يا رسول الله قلت له الذى قلت ثم ألنت له القول؟!

ونسيت السيدة عائشة أن مداراة من يتقى فحشه هى من الفطنة، وأن الفاسق يجب تحذير الناس منه، وأن المعلن لفسقه لا غيبة له.

إن الرسول ﷺ لم يمدح الرجل بعد أن ذمه، ولا أثنى عليه فى وجهه وإنما تألفه بشىء من الدنيا مع لين الكلام..

عندئذ قال النبى ﷺ:

يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من وَدَعه أو تركه الناس اتقاء فحشه.

موقف نبيل مع امرأة سوداء

قد يعمل البعض فى خدمة الناس خدمة خاصة أو عامة، ولا حرج فى ذلك طالما التزم الإنسان الشرف والكرامة والأمانة، فلا يفرط فى عرض، ولا يذل نفسه، ولا يخون من ائتمنه.. وفى مقابل ذلك يجب أن يلقى هؤلاء الكادحون الرعاية والمساعدة بحيث يتفقد صاحب العمل شئونهم ويرعى مصالحهم..

وكان رسول الله ﷺ حريصا على ذلك حرصا كبيرا لا يفرق بين أسود وأبيض، ولا بين أعجمى وعربى، فالناس جميعا أبناء آدم وآدم من تراب، ومقياس التفاضل بينهم هو التقوى والعمل الصالح..

وعلى عهد رسول الله ﷺ كانت هناك امرأة سوداء تقوم على نظافة المسجد، وإزالة القمامة، وتهيئته للصلاة واجتماع المسلمين، وكان الرسول الكريم يسأل عنها ويتفقد أحوالها ويرعى شئونها..

وذات يوم افتقدها الرسول الكريم فلم يجدها كعادتها فى خدمة المسجد، فسأل عنها أصحابه، فكانت المفاجأة.. لقد قالوا: إنها ماتت، وتكفل بها الصحابة فغسلوها وكفنوها وصلوا عليها ودفنوها..

فتعجب الرسول ﷺ كيف أخفوا أمرها عنه؟ وكيف لم يعلموه بموتها؟ وقال: أفلا كنتم آذنتمونى؟!

فكأن الصحابة رضى الله عنهم صغّروا أمر هذه المرأة، وظنوا أن الرسول ﷺ لن يهتم بها ولن يسأل عنها، فإن له من المشاكل والمشاغل والمهمات ما يمنعه من متابعة حالات صغيرة هينة كحالة هذه المرأة السوداء التى تعمل فى خدمة المسجد..

لكن الرسول ﷺ علمهم درسا بليغا، فإن هذه المرأة السوداء قد خدمت المسلمين وعملت فى نظافة مساجد الله، وأدت عملها بإخلاص وأمانة فيجب أن تكافأ وتكرم فى حال حياتها وحال موتها..

فليس من الخير أن يتنكر الناس لمن خدموهم بعد وفاتهم، وليس من حسن الخلق أن تطوى صفحة الكادحين بعد موتهم، وليس من البر أن نتناسى الخدمة التى أسداها إلينا الآخرون..

لقد سأل الرسول الكريم عن قبر المرأة السوداء، فدلوه عليه وذهب إليه ووقف على القبر وصلى على هذه المرأة صلاة الجنازة..

وعندئذ قال النبى ﷺ:

إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أصحابها وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتى عليهم.

حق الطريق

الإنسان فى بيته غير الإنسان فى الطريق وأمام الناس، فالإنسان داخل بيته قد يتخفف من ملبسه، وقد يتخذ أوضاعا لا يحب أن يراها غيره.. والإنسان أمام الناس تحكمه ضوابط وقيم وأعراف..

والطريق العام له آداب فى السلوك واللقاء والكلمة.. وحرية الإنسان إنما تنتهى عند حدود حريات الآخرين..

والمسلم الصادق فى إيمانه يراقب الله تعالى على كل حال وفى كل مكان، لأنه يعلم أن الله يرى، وأن الله لا تخفى عليه خافية..

وذات يوم وجه الرسول ﷺ تحذيرا لأصحابه فقال: إياكم والجلوس فى الطرقات..

وكان هذا النهى منصبا على المضار التى تلحق الناس من جلوس البعض فى الطرقات، فإنهم قد يتخذون من ذلك سبيلا لتتبع عورات النساء وإلقاء الكلمة الفاحشة، أو سبيلا لإيذاء المارة بسلب أموالهم والهمز والغمز عليهم، أو سبيلا لإشاعة المنكر والعلانية بالإثم والمجاهرة بالمعصية أو سبيلا لتجمع بغيض لذوى الأحقاد والنزوات وقرناء السوء..

وقد فهم الصحابة رضى الله عنهم أن النهى عام وتحرجوا وبدأوا يتساءلون فقالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها..

أى أنهم مضطرون أحيانا للجلوس فى الطريق، فماذا يفعلون؟

هنا قال رسول الله ﷺ:

فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه.

أى أن القضية مرتبطة بقيم وأخلاق وسلوك، فمتى حرص الناس عليها سلمت لهم حياتهم وعاشوا إخوة متحابين..

قالوا: وما حقه؟

فالصحابة رضى الله عنهم أحرص الناس على الخير وأسرع الناس إلى البر والمعروف وأخلص الناس لله ورسوله، وكانوا دائما يرغبون فى توجيهات رسول الله ووصاياه ليقينهم الكامل بأنه الرحمة المهداة وصاحب الخلق العظيم..

عندئذ قال النبى ﷺ:

غض البصر، وكف الأذى ، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر..

من أبواب الخير

المسلم يعيش بإسلامه حياته كلها، لأن الإسلام دين الله الخاتم الذى يعم البشرية فى كل زمان ومكان، وينظم الحياة فى دروبها المختلفة بحيث تستقيم مع الدين ومنهج الله..

وحين يعيش المسلم بإسلامه تكون حركاته وسكناته ومواقفه كلها باسم الله وابتغاء مرضاة الله..

وكان الرسول ﷺ يتفقد أصحابه، ويرشدهم، ويصحح لهم، ويقدم لهم معالم الطريق..

وذات يوم سأل النبى الكريم أصحابه قائلا:

من أصبح منكم اليوم صائما؟ قال أبو بكر رضى الله عنه: أنا.

ثم سأل النبى سؤالاً ثانيا فقال:

فمن تبع اليوم جنازة؟ قال أبو بكر رضى الله عنه: أنا.

ثم سأل النبى سؤالاً ثالثا فقال:

فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر رضى الله عنه: أنا.

ثم سأل النبى سؤالاً رابعا فقال:

فمن عاد منكم اليوم مريضا؟ قال أبو بكر رضى الله عنه: أنا.

هكذا كان الرسول يوجه أصحابه إلى منابع الخير ومواقف السلوك الاجتماعى الراشد، وبالتأمل فى هذه الأسئلة نجد أنها بدأت بتهذيب النفس والرقى بها إلى مصاف الملأ الأعلى، لأن الصوم تربية وجهاد، وهو يوقظ فى الإنسان ملكة المراقبة الذاتية لله عز وجل، وكان السؤال الثانى عن تشييع الجنازة ليظل المسلم معتبرا بهذه النهاية مستعدا لها، فكل حى وإن طالت سلامته لابد أن يرحل عن هذه

الحيـــاة شـــاء أم أبـى، وإن الأجـــل المسمى الذى حدده الله تعالى للكـائن الحـى لا يمكن أن يتقدم أو يتأخر، وتقف الإنسـانية جمعـاء حـيرى أمـام ذلـك الابتـلاء الإلهى، كما قال الله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(سورة الواقعة – ٨٣ : ٨٧)

والإنسان عندما يستشعر هذه النهاية يستقيم على الجادة ويعمل الخير ولا يظلم الناس شيئا..

ثم كان السؤال الثالث عن إطعام المساكين وتلك خصلة حميـدة، فـإن الغنـى والفقر يتناوبان على الإنسان، فأغنياء اليوم فقراء الأمس، وفقراء اليوم أغنياء الغـد كما قال الله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

(آل عمران – ١٤٠)

ثم كان السؤال الرابع عن عيادة المريض مشاركة الناس فى نوائبهم وحثهم على الصبر ومؤازرتهم بالدعاء والكلمة الطيبة.

ولأهمية هذه الجوانب فى حياة المجتمع، وأهمية مشاركة المسلم فيـها وقيامـه بها كان أبو بكر الصديق سباقا إليها، وشاء الله تعالى أن يؤديـها جميعا فـى يـوم واحد صامه وشيع فيه جنازة وأطعم فيه مسكينا وعـاد مريضـا.. وأجـاب الرسـول ﷺ بأن هذه الخصال الكريمة اجتمعت له فى يومه هذا..

عندئذ قال النبى ﷺ:

ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة.

الحرص على مجالس العلم

شرف الله تعالى العلم، وأعلى قدر العلماء، وجعل مداد العلماء يعدل دم الشهداء، وكان رسول الله ﷺ يجلس فى المسجد يعلم الصحابة أمور دينهم، ويشرح لهم الوحى المنزل.

وكان المسجد إلى عهد الرسول الكريم ملتقى المسلمين جميعا رجالا ونساء وصبية، يتشاورون فيما بينهم ويبحثون شئون الحرب والسلم وأمور الدين والدنيا..

فالمساجد هى أطهر البقاع، تحفها الملائكة ويستشعر فيها المسلم أنوار الله جل جلاله.. قال الله تعالى:

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

(النور – ٣٦: ٣٨)

وذات يوم كان الرسول ﷺ جالسا فى المسجد والناس حوله ومعه فى مجلس علم ودعوة خير إذ أقبل نفر ثلاثة إلى هذه الحلقة العلمية وحاولوا أن يجدوا مكانا بجوار الرسول الكريم لينتفعوا بما يسمعون من الهدى والنور.. فرأى أحدهم فرجة فى الحلقة فجلس فيها ولم يزاحم أحدا وتيسر له الجلوس، أما الثانى فلم يجد مكانا فى الصف فجلس خلف الصفوف فى هدوء، دون أن يؤذى أحدا أو يطلب تفسحا وأخذ يستمع إلى حديث رسول الله..

أما الثالث فلم يجد مكانا لا فى الصف ولا خلفه، فأدبر وخرج وأعرض عن سماع العلم ولم يكلف نفسه عناء الوقوف ليستفيد من أدب رسول الله وحسن توجيهاته..

ومما لا شك فيه أن الأول أقبل بجد وحرص وشغف على سماع العلم، ولجأ إلى الصف ابتغاء مرضاة الله وتقدم دون خجل أو حياء وجلس فى الصف حبا لله ورسوله.

وأن الثانى أخذه الحياء وجلس خلف الصف فى مواراة ومداراة، وأصغى بأذن واعية إلى درس العلم حبا لله ورسوله.

أما الثالث فلم يكن لديه الحرص على العلم فلا هو جلس فى صف ولا جلس خلف الصف ولا هو وقف على الحلقة عسى أن يصل إلى سمعه ما يصلح سلوكه أو يصحح عقيدته أو يرشده إلى خير..

وقد لمح الرسول ﷺ هؤلاء النفر الثلاثة عندما قدموا، وشاهد ما فعله كل واحد منهم..

عندئذ قال النبى ﷺ:

ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه..

التنزه عن ظن السوء

المسلم لا يقف موقف التهمة، ولا يسلك مسلك الريبة، ويظل دائما حريصا على شرف السمعة وكرامة العرض..

والمسلم يحسن الظن بالناس ولا يسارع إلى إلقاء التهم، ويمسك لسانه عن الخوض في الأعراض، ولا يتناقل الكذب ولا يروج الإشاعة ولا يساعد على الفتنة، وقد قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

(الحجرات – ١٢)

وذات يوم كان الرسول ﷺ معتكفا في المسجد في العشر الأواخر من رمضان..

وتلك سنة كريمة أن يمكث المسلم بعض الوقت في المسجد خالصا قلبه لله، رطبا لسانه بذكر الله..

وأثناء اعتكاف الرسول الكريم في مسجده جاءته إحدى نسائه، وهي السيدة صفية بنت حُيي، لتزوره ليلا، فجلست رضى الله عنها تحدث الرسول الكريم في أمور تهمه أو تهمها، ثم قامت لتذهب إلى بيتها، فقام معها الرسول يودعها حتى تخرج من المسجد.

وأثناء وقوف الرسول مع زوجه السيدة صفية لتوديعها مرَّ رجلان من الأنصار، ودققا النظر فيمن يقف لأن الوقت كان ليلا، فلما رأيا أنه الرسول واقف مع امرأة أسرعا الخطى، فتنبه الرسول الكريم إلى أن هذين الرجلين قد يظنان سوءا ويلقى الشيطان في قلبيهما أن الرسول واقف مع امرأة أجنبية..

فقال النبى ﷺ: على رسلكما، فنادى عليهما وقال لهما: إنها صفية بنت حيى، أى هذه زوجتى.

فقال الرجلان: سبحان الله يا رسول الله.. أى لا يمكن أن نظن بك إلا خيرا، ولا يمكن أن يخطر بقلوبنا شىء يمس كرامة رسول الله..

لكن الرسول ﷺ كان حريصا على توضيح الأمر وتجلية الموقف دفعا للتهمة ومنعا لقالة السوء ودحضا لنزغات الشيطان..

عندئذ قال النبى ﷺ:

إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا..

القسم

المؤمن صدوق لا يتكلم إلا بالحق، وإذا وعد أنجز، وإذا عاهد وفى، يتعامل مع الناس بالحسنى، ويعلم أن الله يرى، ويؤمن أن ما فى النفس لا يخفى على بارئها، فهو يفهم قول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

(المجادلة/ ٧)

فالمؤمن لا يحتاج إلى توكيد كلامه بالحلف والأيمان المغلظة، ثم هو لا يحلف ليدفع نفسه إلى فعل شىء أو لينهاها عن فعل شىء، لأن تعامله يجرى على الفطرة والنقاء والطهر، وهو يلتزم بما يحب الله ويرضى..

لكن بعض الناس يحلفون ثم يحنثون، والبعض يحلف كذبا، والبعض يحلف ليمنع نفسه من معروف وبر وصلة.. وتلك صور يرفضها الإسلام.. قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

(البقرة/ ٢٢٤)

وحين يحلف الإنسان ويحنث لأى سبب كان فقد جعل الله كفارة مخيرة فى الابتداء، مرتبة فى الانتهاء، فهو مخير فى أن يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم أو

يعتق رقبة، يفعل من ذلك ما يراه مناسبًا لحاله، فإن عجز انتقل إلى صيام ثلاثة أيام.. قال الله تعالى:

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

(المائدة / ٨٩)

وذات يوم أدرك الرسول ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ركب وسمع عمر يحلف بأبيه..

والإسلام يرفض هذا الاتجاه فإن الحلف يقتضى تعظيم المحلوف به، وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى فلا يشبه به أحد.

وبعض الناس يحلفون بآبائهم وأمهاتهم وقبور أنبيائهم وصالحيهم، وهذا كله مرفوض دينيا، فالحلف لا يكون إلا بالله تعالى أو اسم من أسمائه سبحانه، أو صفة من صفاته جل شأنه، كأن يقول: والله أو أقسم بالعلى العظيم، أو أحلف بعزة الله.. الخ.

وسمع الرسول قسم عمر بأبيه، عندئذ قال النبى ﷺ :

ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت.

حسن الخاتمة

يمر الإنسان بمراحل تربوية فى حياته تبعا لظروف البيئة والأسرة، فإن تأثيرات هذه الظروف فى حياة المرء كبيرة جدا، قد تدفعه إلى الخير وترشده إلى المعروف والبر عندما تكون بيئة صالحة وأسرة سعيدة، وقد تدفعه إلى الشر والمأثم عندما تتلوث البيئة وتتفكك الأسرة..

ويظل الإنسان أمام الله تعالى فى إقبال وإدبار حتى تأتى الخاتمة والنهاية، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويدع للإنسان فرصة التأمل والعودة إلى الرحاب الطاهرة، وينادیه صباح مساء بأن يقبل عليه بقلب سليم..

ثم تكون العودة بالخاتمة، فمن ختم له بخاتمة السعادة فهو من أهل السعادة، ومن ختم له بخاتمة الشقاوة فهو من أهل الشقاوة..

وذات يوم قال الرسول ﷺ لأصحابه: يضحك الله لرجلين، يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة..

يريد الرسول ﷺ أن يقول لأصحابه إن هناك حالة عجيبة: رجلان يقتتلان فيؤدى قتالهما إلى أن يموت أحدهما، ومن المعلوم شرعا أن القاتل ظلما يناله الغضب والوعيد الشديد من الله تعالى يوم القيامة وأن المقتول ظلما فى الجنة ونعيمها يتقلب كيف يشاء..

قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(النساء / ٩٣)

لكن الحالة العجيبة التى أشار إليها الرسول ﷺ هى أن القاتل والمقتول كليهما يدخل الجنة، فقال الصحابة: كيف يا رسول الله؟!

فأجاب الرسول بأن هذه الحالة العجيبة قد تحصل عندما يلتقى المسلم بالكافر فى معركة من أجل الحق والدين، فقد يتغلب الكافر على المسلم فيقتله، فيكون المسلم حينئذ شهيدا، له المنزلة الكبرى والثواب الأعظم فى الفردوس الأعلى.. قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (آل عمران ١٦٩-١٧١)

ثم تحدث المفاجأة ويتحول القاتل الكافر عن عقيدته ويشرح الله صدره للإسلام وينتقل من صفوف الأعداء إلى صفوف المسلمين، يدافع عن دينه الجديد الذى ارتضاه بمنطق العقل والقلب واقتنع به اقتناعا جعله يضحى بكل شىء..

ويظل هذا المسلم الجديد يدافع ويناضل ويقاتل فى سبيل الله حتى ينال شرف الشهادة فيلقى الله شهيدا ويدخل الجنة، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن تاب توبة نصوحا يبدل الله سيئاته حسنات..

قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(الفرقان / ٦٨ : ٧٠)

إن النبى ﷺ ألقى على مسامع أصحابه هذه القضية العجيبة وشوقهم إليها فلما سألوا عنها..

عندئذ قال النبى ﷺ:

يُقتل هذا فيلج الجنة، ثم يتوب الله على الآخر فيهديه إلى الإسلام، ثم يجاهد فى سبيل الله فيستشهد.

العبرة بالخواتيم

قد يبدأ الإنسان الطريق خيرا كان أو شرا، ويواصل مسيرته فيه إلى أن تأتى لحظة النهاية فيتغير الموقف من الخير إلى الشر، أو من الشر إلى الخير..

وقد يعمل الإنسان العمل ليصل إلى نتيجة يراها أو غاية يقصدها، فإذا به بعد أن يقطع شوطا كبيرا يتحول إلى نتيجة أخرى أو غاية بديلة..

وقد يمارس الإنسان نشاطا ويبذل جهدا فى اتجاه معين، فإذا به يصل إلى اتجاه آخر..

وأيا ما كان فإن العبرة بالخواتيم، وما على الإنسان إلا أن يسعى ويبذل الجهد ويبتغى مرضاة الله ثم يدع العواقب لله أحكم الحاكمين..

وفى إحدى الغزوات التقى الرسول ﷺ فى معركة حامية مع المشركين، وعقب انتهاء المعركة مال الرسول إلى عسكره، ومال المشركون إلى عسكرهم، وتجمع كل فريق فى المكان المخصص له، وظل رجل من عسكر المسلمين يتتبع فلول المشركين ويضرب بسيفه من يجده فى طريقه، حتى شاع خبره بين المسلمين ورفعوا أمره بإكبار إلى الرسول ﷺ وقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان..

أى أنه بذل جهدا شاقا فى المعركة، ورأى الناس أنه أكثرهم قتالا، وأشدهم بأسا، وظنوا أن له الثواب الأعظم والجزاء الأوفى..

فقال رسول الله ﷺ: أما إنه من أهل النار..

فدهش القوم وتعجبوا حتى قام أحدهم وتتبع الرجل ليتعرف عليه عن قرب، وسار خلفه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه..

فرأى هذا الصحابى الرجل المقاتل وقد جرح جرحا شديدا ولم يصبر على ما أصابه، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وطرفه الأسفل بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه وانتحر..

ولا شك أن قتل النفس كقتل الغير سواء بسواء، كلاهما جريمة نكراء، فإن الأنفس كلها لله رب العالمين، لا يملك أحد منها شيئا، ويجب الحفاظ على الدماء كلها إلا بحقها..

ولما رأى الصحابى ما آل إليه حال الرجل المقاتل ذهب إلى الرسول وقال: أشهد أنك رسول الله، فسأله الرسول: وما ذاك؟ أى ما سبب قولك هذا الآن؟ قال الصحابى: الرجل الذى ذكرت آنفا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت أنا لكم به فخرجت فى طلبه حتى جرح جرحا شديدا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه (طرفه الأسفل) بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه..

عندئذ قال النبى ﷺ: **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة.**